الحرية فى المذهب الوجودى

للاستاذ عبدالفتاح الديدي

الحرية فى المذهب الوجودى من أهم وأخطر نظرياته . ولعلنا نستطيع أن نصفها بأنها العمود الفقرى الذى تدور حوله كل فلسفات الوجوديين مهما اختلفوا بصدد المشكلات الأخرى . والفلسفة الوجودية إذ تنادى بهذه الفكرة إنما تريد أن تدع للانسان فرصة التفكير فى نفسه والرجوع إلى ذاته والاحتكام إلى رأيه الخاص فى كل مشكلة تعرض له وفى كل موقف يتخذه بمناسبة من المناسبات. فرد الإنسان إلى ذاته دائما عند إتيان الأفعال وإبراز الحركات فى الفلسفة الوجودية . ومن هنا تمحى كل آلية ويبقى الانسان محافظا على جدته وبكارته الأولى .

فالحرية بهذا المعنى تؤكد البدء دائماً ، وبالتالى هى الجسر الدائم من اللاوجود إلى الوجود ، من الإمكان الى الواقع الحى . وننبه هنا بهذه المناسبة إلى شىء فى غاية الأهميـة ، وهو أن الوجود الإنسانى فى حد ذاته لا يعد وجوداً ولا ينظر إليه بوصفه واقعاً ، وإنما هو إمكان مطلق. فمجرد وجودى أنا إمكانية فحسب لا تتحول ولا تصير وجوداً ولا تتجسم فى هيئة واقع إلا بعد أن أتحرك وبعد أن آتى جملة من الأفعـال . فهذه الحركات وتلك الأفعال هى التى يتوقف عليها الوجود الإنسانى الذى يكون حاصلا بالفعل . وما دام من المستحيل على كل إنسان أن يأتى أفعاله من غير ارتكان إلى نوع الاختيار أو قل ما دام كل عمل يصدر عن الإنسان هو تصرف مبنى على فكرة خاصة ، كان للحرية أكبر مقام فى نفس الإنسان وأخطر أثر فى حياته . وواضح أن قيمتها لا ترجع إلى أنها طريقة فى العمل ووسيلة إلى التأدية فقط ، وإنما ترجع إلى ضرورتها بالنسبة إلى الحياة بأكلها . فالحياة لا يمكن إلا أن تكون فعلا ، والوجود هو وجود العمل والحركة . لذا ماقيمة إنسان حى مغطى بالتراب فى باطن الأرض ما دام لا يقوى على العمل وإصدار الحركات وإتيان الأفعال ؟ أو قل إذا افترضنا وجود إنسان مغمض العينين ، ساكن الجسم ، لا يصحو ولا يتحرك ، ولا يؤذى ولا يطعم ، ولا يمرض ولا يموت ، ولا يتمنى ولا يطالب ... إلى آخر هذه الصفات الإنسانية ؛ فهل يمكن أن نطلق كلمة الإنسان على هذا المخلوق ؟ لا بطبيعة الحال ، لأن الوجود وجود خصائص معينة وارتباطات قائمة وأفعال ظاهرة وحوادث فى الخارج وليس مجرد وجود لأشياء وحاجات. فالوجود وجود أفعال، والأفعال لا تحدث بغير اختيار ، والاختيار قائم على إرادة حرة أو غير حرة ... وبذلك ندرك خطورة الحرية فى حياة الإنسان .

فالحرية على هذا النحو هى الفيصل بين وجود الإنسان وغير الإنسان ؛ بل إن الحرية هى الإنسان فى رأى سارتر . وإذا شئنا أن نبدأ بتحليل أولى لهذه الفكرة عنده فلا بد من الرجوع إليها فى تفرقة وضعها (هيدجر) أولا ثم توسع فيها جان بول سارتر بعد ذلك فى كتابه المسمى بالوجود والعدم. ففى هذا الكتاب ــ وهو بمثابة الانجيل فى الوجودية المعاصرة ــ يذهب سارتر إلى أن هناك نوعين من الوجود : وجود الإنسان وهو الوجود لذاته ، ووجود الأشياء وهو الوجود فى ذاته (١) .

والوجود لذاته ــ أى وجود الانسان ــ هو الوحيد الذى يمتاز بين قسمى الوجود حسب تفرقة سارتر فى خاصية التفريغ والإنقسام على نفسه بحيث يصير بعضه مقدما أو ممطى أو حاضراً بالنسبة إلى بعضه الآخر . فوجود الإنسان يتكون عادة من فرعين ويحدث بين هذين الفرعين نوع من الإحالة المتبادلة وشىء من التكيف الظاهر . أما الوجود فى ذاته فلا يعرف الانقسام ولا يحدث فيه تجويف ولا يصيبه الفراغ . ولذلك نلاحظ أنه على الرغم من أنه كان يكون طبيعيا جداً ظهور العدم فى طيات الوجود فى ذاته ، لا نكاد نجد له أثرا هناك ولا نكاد نعثر على شىء منه لديه ، وتفسير ذلك تبعاً لنظرة سارتر خاصة أن وجود الأشياء لا يعرف الزمن أولا ولا يدرك معنى الحرية ثانياً ، أما الإنسان فهو وحده الذى يستطيع أن يحس بالحرية وأن يشعر بمدلولها ويفهم المراد منها

وإذا تساءلنا عن السر الذى يجعل الإنسان من بين نوعى

---

(١) راجع عناصر هذه التفرقة وصفات كل من الطرفين فى مقالنا عن القمة فى المذهب الوجودى بمجلة الثقافة ، العدد (٥٤٣) بتاريخ ٢٣ مايو ١٩٤٩ .

الوجود قادراً على استيعاب فكرة الحرية والتأثر بها فاننا نجده في هذه الظاهرة البسيطة والغريبة في آن معا وهي أن الإنسان وحده من بين نوعي الوجود يحتوي على ما نسميه في الفلسفة بالعدم ؛ بل إن العدم يضرب في بطن الوجود الإنساني بحيث يستغرق كيانه بأجمعه ، ويختلط بحياته على نحو يشعرنا بالرابطة الأصلية بين كل منهما. فالوجود بالنسبة إلى الإنسان خاصة عبارة عن إعدام كل ملامح (الوجود في ذاته) فيه ، والتخلص من آثار السينية التي تداخل تركيبه[1] . وعملية الإعدام هذه إنما تأتي من جانبين أو تحصل من جهتين : أولهما أن الإنسان يحاول دائماً ألا يجعل المكان الأسمى في نفسه للأشياء الجامدة التي يتركب منها ويسعى جهده من أجل السيطرة عليها وتسييرها حسب إرادته ومشيئته، ولا يكون عبدا لها، خاضعاً لما تقتضيه ظواهرها، أعني بذلك أن الإنسان مكون من مادة ؛ ولولا أن هذه المادة قد داخلت تركيب الإنسان لصارت في نطاق القسم الثاني ، قسم الأشياء في ذواتها ، ولذلك يحاول الإنسان ألا يجعل لها الأولوية في تكوينه وأن يعدمها إعداما ليخرج في النهاية بوجوده المعروف لدى البشر. وثانيهما أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحس بالوجود ؛ وبالتالي هو الكائن الوحيد الذي يدرك معنى العدم ، لأن العدم على خلاف ما نظن أو يبدو لنا من أول وهلة لا يعرفه إلا الموجود الذي يشعر بأنه موجود ، لم يكن هناك عدم قبل الوجود ، بل الوجود هو الذي كان، فكان العدم ، فنحن نعرف العدم لأننا وجدنا ولو لم نوجد لما عرفنا دلالته ولا أحسسنا بماهيته ، إذا فالوجود هو الأصل في الاحساس بالعدم والاهتمام بأمره، ولا عدم إلا بالوجود ، ومادام المعدوم معدوما فلا وجود هنالك ، ولا عدم أيضاً بناء على ذلك ، فالمعدوم لا يلم باسم العدم ولا يدل العدم عنده على شيء ، فالإنسان يوجد، وساعة يوجد ينفذ إليه العدم ويخترق الصفوف نحوه ويبزغ أمامه في عقله وفي شعوره ، ومن هنا نستطيع أن نقول عن العدم إنه وليد الوجود وإنه ناشيء عن حدوث ظاهرة الحياة .

والعدم النفسي هو الذي يهمنا إذا تكلمنا عن الوجود الإنساني لأننا لا نستطيع أن نتكلم عن العدم الحقيقي ما دام لم يدخل حتى الآن في تجربة واحد من البشر . وإذا شئنا تحديد مظاهره فاننا نستطيع أن نلمسها من ثلاث نواح :

أولا : من ناحية إعدام الماضي

ثانياً : من ناحية إعدام الممكنات

ثالثاً : من ناحية العدم الذي يفصل بين الوجود وما هو عليه وبين الوجود وما يصير اليه ، ومن هذه الأعدام الثلاثة سنفتهي إلى الحرية وسنجد ثغرة ندخل منها إلى مفهوم الحرية كما ترد على لسان الوجوديين الملحدين خصوصاً

من الناحية الأولى نلاحظ أن وجودنا في الحاضر لا معنى له إلا من حيث ارتباطه بسلسلة من الأفعال والحركات التي سبق أتيانها في حياتنا والتي سبق إلحاقها بتاريخنا الخاص ، والعمل في الحاضر إنما هو عمل من أجل إبعاد الحاضر وزحزحته عن مكانه وإسقاطه من دائرة الوجود . ولذلك نستطيع أن نحكم على كل فعل من الأفعال بأنه متوقف على انعدام ماسبق فعله وانتهاء مرحلة من مراحل الحياة انتهاءً كلياً . فالحاضر متوقف على انقضاء الماضي . ويعتمد على الفراغ الذي يحدثه استبعاد جانب من الجوانب . ولكنك مع ذلك تحكم حريتك في كل لحظة زمنية تمر بك وفي كل فترة تنقضي عليك ، ولا مناص من استخدام الحرية في كل فعل من الأفعال التي تعلن انتقال الماضي وتشييع أحداثه وحاجته، فأنت في كل لحظة تريد أن ترفع الماضي من طريقك لتضع جديداً وكلما أتيت على محاولة من هذا القبيل ، لإحلال الجديد محل القديم ، اضطررت اضطراراً إلى استعمال الحرية . وإلا فكيف يمكنك أن تأتي فعلا من الأفعال ؟ إن الإنسان بطبيعة تكوينه مضطر أن يكون حراً كما يقول سارتر ، بل إنه لا يملك الحرية في ألا يكون حراً . وإذا تمثلت الحرية المقضي على الإنسان بها أو التي حملها الإنسان في شيء من الأشياء فانما تتمثل في الأفعال التي يأتيها والأعمال التي يندفع نحوها من أجل تحقيقها .

وترجع أهمية الماضي بالذات في تقرير فكرة الحرية هاهنا إلى أنه الأصل في التاريخ الذي يؤدي بدوره إلى نوع من الالتزام . فكما أن اعدام الماضي يتمثل في قضاء فترة ، يتمثل كذلك في تحطيم اللوازم ورفع الضوابط وإزالة القيود . فالماضي ضروري من أجل سير الحاضر ومن أجل تهيئة الحرية بإيجاد نوع من الالتزام الذي لا توجد حرية بغيره ولا تتوفر إرادة بدونه . فالقيد أو

(١) سارتر : الوجود والعدم (ص ١٥ س ٨) طبعة جاليمار .

الالتزام ضرورى لايجاد الحرية لأن الحرية ستتضح من الوقوف وجها لوجه بإزاء هذا القيد وذاك الالتزام والعمل على رفعه ومحوه وإزالته بالثورة عليه . يقول سيمون فى تعليقه على هذه النقطة من فلسفة سارتر : ينبغى أن تنبعث الحرية الصحيحة فى الفعل وفى التاريخ وهى لا توجد كذلك مادامت محتواة فى المشروع الذاتى للحكم والتأمل أيضاً ، أنها تفترض التزاما إذا . ولكن الفعل ليس حرا تماما إلا إذا كان ثورة على قوى العالم . . .. فالالتزام شرط ضرورى للتصرف الإنسانى الحر ، بيد أنه ليس شرطاً كافيا إن الشرط الكافى هو الثورة التى هى روح للحرية . (١)

والإنسان بإزاء فعل من الأفعال (وهذا يتبع النقطة الثانية) يتخذ أسلوبا خاصا به وينتحى منحى لا يشاركه فيه سواه . قد يكون هذا متمشيا مع ظروفه وتابعا لما تقتضيه مناسباته ولكنه مع ذلك يقحم حريته إقحاما ويدخل إرادته إدخالا يتمثل فى عملية الأختيار : ويتخلل عملية الاختيار صعوبات كثيرة تشكك فى أمره وتشعرنا بضعف مركز الحرية إذا قيس إليها . ولكن شيئا ما لا يجعلنا نؤمن بالحرية الإنسانية فى عملية الاختيار قدر ما تجعلنا هذه الصعوبات نفسها نؤمن بها . لأن الحرية إنما تعرف بالحيلولة بينها وبين الوجود وبالعقبات التى تصادفها وبالموانع التى تبطل عملها أكثر مما تعرف بالانسياب المطلق والارادة البريئة والاستقلال التام . إن الشعب المستعبد هو الذى يتحدث عن الحرية ، والعبد وحده ، من بين خلق الله ، تجول بذهنه فكرة العمل الفردى والانتقاء البعيد عن المؤثرات والرغبات الأخرى . ويقول سارتر نفسه فى مقال له بعنوان جمهورية الصمت فى الجزء الثالث من كتابه (المناسبات) الذى ظهر أخيرا : لم نكن قط أكثر حرية مما كنا تحت ظل الاحتلال الألمانى حيث فقدنا كل حقوقنا وبالتالى فقدنا حق الكلام، فقد كانوا يشتموننا فى وجوهنا كل يوم ، وكان ينبغى علينا أن نسكت . وكانوا ينفوننا جماعات جماعات كالعمال والمعتقلين السياسيين . وكنا نجد فى كل مكان ، على الحوائط وفى الصحف وفوق شاشة السينما ، تلك الوجوه القذرة الباهتة التى حاول مستعمرونا أن يعطوها لنا عن أنفسنا . وبسبب هذا كله كنا أحراراً .

أرأيت إذاً إلى هذه الحرية الغريبة عند سارتر . إنها تتوقف كما ترى على الحوائل والموانع أكثر مما تتوقف على الانفكاك والطلاقة . إنها حرية تنبنى على الوضع القائم ولا تجنح إلى الخيال، وتنبع من صميم الوجود الحاضر المتمثل فى الظواهر المحيطة والأشياء المجتمعة . لقد سبق أن قلنا عن المعدوم إنه لايعرف العدم وأن الميت لا يدرى قط معنى الموت ؛ أما الحى فهو عالم تماما بالموت ومدرك تماما لمدلوله ، وكذلك هنا نستطيع أن نقول عن الحرية إنها لا يعرفها إلا العبيد والمأسورون والمحاطون بالقيود والحواجز .

وهذه الحرية ، بالاضافة إلى ذلك، قائمة على أساس اختيار غاية من الغايات وانتقاء هدف من الاهداف . وبكلامنا فى هذا المضمر وتوضيحنا لهذا المعنى سنقرر أولا كيفية استكمال ماقصدناه فى النقطة الثانية ، وسنبدأ ثانيا بالحقائق والشروح التى تتضمنها النقطة الثالثة . فأنا حين أختار غاية دون غيرها من الغايات آتى على فعل واضح كل الوضوح بالنسبة إلى وهو أننى قد آثرت شيئا على سواه . وينبغى أن نلاحظ هنا ذلك الفارق الكبير الموجود بين عملية الاختيار وبين عملية الانتقاء . فهذا الأخير عبارة عن تفضيل شيء بحكم فائدته المرجوة ونفعه المنتظر، وبحكم امتيازه من ناحية القيمة الكامنة فيه واللذة التى تعود من ورائه على صاحب الشأن. أما الاختيار فلا ينصب على الافضل وإنما ينصب على الأوفق مهما كانت درجة انحطاطه وسخافته ومهما بلغ من التفاهة فى أنظار الناس الاختيار برىء من الغرض وخال من المنفعة وقد يكون من ورائه ضرر أى ضرر . ولذلك نباعد بينه وبين التفضيل والانتقاء؛ ونذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الاختيار أكثر التصاقا بالحرية مادام ينبنى على أخطار أكثر وعلى مآزق أشد وعلى مجال أضيق. ثم إننى فى الاختيار بغير انتظار لنفعة وبدون أمل فى كسب أنشد غاية من الغايات وألغى ماعداها . فأحس بأننى حددت من وجودى مرة واحدة بلا مقابل وانصرفت إلى جانب واحد أعيشه وأجلب ممكناته. وفى الوقت نفسه أعدمت بيدى سواها من الغايات حيث لاضمين لى على حسن الاختيار ولا شفيع لي عندما تؤدى إلى أدنى وضع وأخس درجة .

---

(١) بيير – هنرى سيمون : الانسان فى التكوين ... طبعة سويسرا (ص ٦٨ س ١٨)

حسب النقطه الثانيه نواجه الغايات فنعدمها إلا واحـدة وفى هذه الفصلة نحن نحصر أنفسنا فى نطاق واحد ونعدم ماعداه. فتكون الحرية عند الاختيار متوقفة على العـدم المتمثل فى عملية الاعـدام هذه أى ذلك العدم الذى ينزل بساحة الغايات الأخرى التى لم يقع عليها الخيار . أما حسب النقطة الثالثة فنذهب بعيداً لننظر فى العدم الذى يحول بيننى وبين تحقيق الغاية التى اخترتها. إن الدافع والفعل والغاية تكون لدى سارتر شيئا واحدا متصلا وتعد فى نظره كلا ملتحما . وهذا عادى جداً فى نظر الفيلسوف الذى لا يعترف بالتجزئة فى الشىء مادام من الممكن استكماله فى الزمن . إن الزمن حميمه. يعمل الفيلسوف حسابها ولا يخشى من الحكم عليه بأنه ينظر فى أمور لا وجود لها . لقد كان أرسطو مهتما خصـوصاً بالبحث فى العلة الغائية ولم يخش تقول القائلين ومزاعم الناقدين الوضعيين من أبناء العصر الحاضر . وكان يريد ألا ينظر إلى الوسـائل إلا من خلال الغاية ولا يتطلع إلى الاجزاء إلا من نوافذ الكل المكتمل وإذا كان هذا دأبه فـلا بد من الشعور بأن المستقبل على الرغم من أنه فى جوف العدم ، يحتوى على حقيقة وجودية هامة هى حقيقة الغاية التى نعمل على تحقيقها بالوسائل المختلفة والأدوات المتباينة . فالغاية ليست بمفردها ولا تقوم بمعزل عن الفعل والحافز فى فكرة الحرية تبعاً للنظرة الوجودية الفلسفية . ولـكن لا يعنى ذلك أن الغاية موجودة وجوداً واقعياً ؛ إذ أن العدم يفصل بينها وبين الوجود الوقتى فى اللحظة الحاضرة . فالحرية عند سارتر تتعلق بالغاية ، والغاية بعيدة عن الواقع بقدر ما يبطلها العدم أو بقدر ما يرفضها الوجود ؛ وإذا تحققت صارت واقعاً وتمت الحرية . ولهذا تتصف الحرية بالخلق وتتصف باللامعقولية فى آن معا لاستحالة الوقوف على المستقبل بصورة أكيدة ولصعوبة التعرف الموثوق به على منبع الإمكانيات المتدفقة فى الوجود الثر .

وهكذا ننتهى من التخطيط المتافيزيقى لفكرة الحرية حسبما تمثلت فى فلسفة سارتر خاصة وعند أضرابه من الوجوديين المحدثين. ولـكن لهـذه الفكرة فى المذهب الوجودى تخطيط آخر من الجانب الأخلاق البحت سنحاول أن نبحثه فى مناسبة قادمة . وكل ما نتمناه هو أن نعطى صورة واضحة عن هذه الأصول الفلسفية لدى الغربيين حتى نستكمل مقوماتنا الروحية وحتى نضع الدليل الدامغ على أننا نستطيع أن نناقش ونستطيع أن نؤمن مهما كانت درجة الخطورة فى الأفكار المنقولة من شمس الأصيل فى حضارة الغرب .

عبد الفتاح البحرى

جـــــان دارك

(١٤١٢ — ١٤٣١)

سيظل اسم جان دارك مقروناً بالإعجاب والدهشة إلى الأبد، لأن هذه الفتاة البسيطة أنفذت فى حياتها القصيرة عملا جليلا . يعد من معجزات الدهر . وهى بذاتها وحدة من عناصر العظمة، وقائدة حيث نسى معنى القيادة، وإلهام فى جيل انعدم فيه الإيمان ، ومنقذة لبلادها من وهدة الضياع .

وجان دارك رمز خالد للمحاربين الفرنسيين الذين عملوا معها على خلاص بلادهم من يد الإنجليز ، وهى للفرنسيين الوطن الذى له يحيون ومن أجله يموتون ، وهى فى نظر الإنجليز ليست أقل من ذلك . ويقترن الاحترام المطبوع فى نفس كل إنسان لجان دارك بالعار الذى لطخ الإنجليز به التاريخ بإحراق هذه الشهيدة القديسة ولا سيما إذا علمنا أن سبب إعدامها هو تخليص وطنها . ولتعجب عندما تعلم أن تسليمها إلى يد معذبيها كان بواسطة مواطنيها من أجل ثلاثين قطعة فضية بيعت بها .

ونتلخص قصة هـذه البطلة فى أن فرنسا كانت تحت حكم الإنجليز ، وكان الملك فى عهدها معتوها يطلق عليه الفرنسيون (ملك البورج) تهكما وسخرية ؛ لأن منقطة البورج هى كل ما بقيت له مما ورثه عن آبائه العظام. وكان حال الأمن فى فرنسا على أسوأ ما يكون . فإلى جانب اعتداء جيش الاحتلال كان نهب قطاع الطرق وسلب اللصوص . وتعطلت الأعمال فى نصف الأراضى الفرنسية بما عليها من كنائس جميلة البناء وقرى مستقرة بزرعها وصناعاتها بينما كان ولى العهد محاطا ببطانته السيئة يحيا حياة فراغ وكسل وإهمال .

ومن هذه الصورة التى رسمتها لك قامت لنجدة فرنسا فتاة قروية لا شأن لها إلا رعاية أغنام أبيها وقطعانه ، أو تطريز أقمشة الكنيسة بمساعدة أمها . وكان قلبها ملآن بالورع والتقوى تتخيل وهى أمام القداس أنها ترى الضوء المنعكس على زجاج نوافذ كنيسة دومرمى الصغيرة كأنه نصر مزدهر للإيمان والوحى اللذين لم